"شهرزاد" توفيق الحكيم

بقلم فاروق خورشيد

« شهريار – دائماً هذه الارض : لاشيء غير الارض : هذا السجن الذي يدور . انا لا نسير ، لا نتقدم ولا نتأخر ، لا نرتفع ولا ننخفض ، انما نحن ندور . كل شيء يدور ، تلك هي الابدية .. يا لها من خدعة : نسأل الطبيعة عن سرها فتجيبنا باللف والدوران .

شهر زاد – نعم انت تدور . وأنت الآن في نهاية دورة .. »

بدأت الدورة حين كان شهريار غضاً نديا يحب الجمال ، عذباً سلساً يحب الصفاء ، شاباً صغيراً يعشق الوفاء .. وعاش شهريار ملكاً أقام الملك بينه وبين الهموم ستاراً كثيفاً .. وتحرك الزمن فاذ بصخرة ضخمة تعترض الجدول الرقراق واذ بمائه السلسال ينساب متفرقاً متبدداً ، فالملك الشاب الغض ، يفجؤه الزمن بامرأته بين احضان عبد .. وتثور دماء الشباب وتفور غضبة الملك ، وتنبعث صيحة الكرامة في نفس الرجل الصغير فيطيح برأس العبد وبرأس الزوجة ويطيح معها بهنائه وسعادته . ويبدأ شيء جديد في حياة الشاب ، كفر بالعواطف ، وكفر بالمعاني ، وكفر بالمثل ، وبين سطوة الملك وسيف الجلاد مرت عذارى المملكة الواسعة ؛ عذارى كثيرات يقدمن بأجسادهن وأحلامهن وصفائهن على مخدع قاس لا يعرف الا أن الحياة غدر ، وأن المرأة قوية بدهائها ومكرها ، وان الوفاء هباء وان الثقة عبث وضعف . وفي الصباح يتولى سيف الجلاد اطفاء الاجساد والاحلام والصفاء .. ويذهبن كما جئن وقد اخفقن في ادخال بصيص من النور في هذا القلب الذي تحجر وفي هذه النفس التي انغمست بكل قوة في حياة الجسد وكفرت بكل قوة بحياة المعنى .

ويتحرك الزمن مرة اخرى .. وكالطيف تدخل المعرفة حياة الرجل الذي انضجته الشهوات .. رفيقة هادئة ، تدخل حسه وعقله في يسر وفي بطء .. وطاف الرجل الدنيا بخياله وعقله ، وعرف ان الحياة شيء كبير غير العواطف الصافية وغير الشهوات العارمة .. شيء آخر اسمى من العواطف وأقوى من الشهوات ، وعرف ان العواطف كانت عبئاً أضاع جزءاً من حياته في الوهم ، وعرف ان الشهوة قيد يربطه بالجسد ، بالمادة ، بالارض ..

وكان الرجل يحب بكل قلبه امرأة كايزيس فتنة ورفعة وكبيد بانضجاً وفهماً ووعياً .. وكان الرجل يشتهي امرأة ملكت ناصية الجسد . تعرف ان لها جسداً لا ككل جسد وتعرف أن شهريار يحب هذا الجسد ويريد هذا الجسد . وأحس الرجل ان هناك رباطاً يربطه بالعاطفة هو قلبه وأحس الرجل ان هناك رباطاً يربطه بالشهوة هو جسده .. وأحس أن كلا الرباطين يعوق حركته نحو المعرفة ويقيده بقيود من فولاذ بالارض .. ويمنعه من التحرك نحو الهدف ... نحو القمة . . . ويقف ناظراً نحو القمة وهو لا يصل تصطرع في اعماقه العوامل الثلاثة اصطراعاً ضخماً .. مرة هي « شهريار – أنت جسد جميل .. »

.. ومرة اخرى يعود الى رباطه الاول

« شهريار – انت قلب كبير .. »

ولكن يحس في المرتين انه اخفق ، فليست هي القلب الكبير ولا الجسد الجميل فما هي ؟ .. ومن هي ؟ ..

« شهريار – انت عقل وتدبير .. »

وتجيبه شهرزاد بهدوء وثقة :

« شهرزاد – كلا .. »

والصراع بين هذه العوامل الثلاثة مجسد في قمر الوزير الشاب يعيش الدنيا بعواطفه ، يحب في شهر زاد المعنى السامي والخيال الرقيق ، يعيش الحياة بقلبه ويفهم الدنيا بعواطفه .. وحياته كلها امرأة جميلة تعيش في خياله كالهدف ، كالغاية ؛ ويتحطم الهدف وتتحطم الغاية حين يرى العبد يخرج من حجرة شهر زاد ، ويمسك بيده سيف الجلاد يطيح برأسه هو عن جسده .. حياة هي الحلم . وعندما يطلع النهار تذوب الاحلام

« شهريار – لم يعد قمر يستمد الحياة من الشمس .

شهر زاد – لأنه لم يعد يؤمن بها »

والعبد الذي اتى من بلاد بعيدة استجابة لنداء الجسد الخفي ، عبد من الطين لا من النار ، يعيش حياة الجسد ، يفهم الدنيا بقانون الرغبة وحياته كلها جسد جميل تفوح منه الشهوة ويثير فيه الرغبة ، وهو من أجل الجسد يتخطى العقبات ويغامر برأسه ، ولكنه حين يعرف انه كان ضحية من ضحايا شهرزاد ويواجه شهرزاد تهمس في اذنه :

« شهرزاد – ما الذي يمنعك من قتله ؟ »

وتثور فيه كل رغبات الحياة ، وتفور في نفسه شهوة الانتقام ونشوة الحقد :

« العبد – ايتها الخائنة : وقتلك معي .. »

اما شهريار ، الرجل الذي احب بقلبه ثم مر بالتجربة ، والرجل الذي اراد بجسده ثم دخل الى التجربة الجديدة ، تجربة المعرفة ، فهو هارب من جسده ، ومن الرباط الذي يربطه بالأرض ، هارب من شهرزاد الى الهند مرة ، والى مصر مرة ، وقدمه تحمله الى كل مكان ، ولكنه يواجه الحقيقة في كل مكان ..

(يتجه كثيرون ممن اقنعوا أنفسهم انهم يمتون الى عالم الأدب بصلة الى الاكتفاء ببقايا الجالسين على المقاهي في حوارهم المحموم حول الأدب والادباء زاداً يتزودون به ليقيموا على اساسه أحكاماً في تحطيم جهاد الأدب العربي في مطلع هذا القرن .. وقفزت الى الألسنة شهادات براقة وكلمات خطابية تمحو بجرة قلم جهد الجاهدين وكفاح الطامحين ..

ولذا لزم أن يتجه بعض نقادنا في هذه الفترة البانية الى محاولة دراسة هذا الانتاج دراسة تكشف عما فيه من جهد وعما يحمل من اتجاهات بعضها جاء تلقائياً وبعضها جاء نتيجة لدراسة متعمقة ..

وانا واثق أن هذه الدراسات ستزود جيلنا الأدبي بتاريخ قريب قد يكون على صلة بتاريخه الأدبي البعيد وقد يكون مهاداً لمستقبل أدبي مبني على واقعنا الأدبي لا على دافع غريب منقول ..

وبعد ، فان هذه المحاولة في دراسة شهرزاد لتوفيق الحكيم جزء ضئيل من هذا الاتجاه .. حبذا لو عم ..)

ف. خ.

يواجهها في مصر امام تمثال ايزيس ، ويواجهها في الهند امام تمثال بيدبا ، ويعرف ان الهرب عبث :

« شهريار – رحلتنا ، صه أيها الابله ! انا ما تحركنا بعد .

قمر – (ينظر في خوف) – مولاي !

شهريار – لا تخف يا قمر . اتحسبني مجنوناً ؟ كلا لست بمجنون (يشير الى ساقيه) كيف تقول انا سافرنا وهذه الاوتاد تربطنا بالارض ؟ »

أين يهرب من حقيقته وهو آدمي ربطه وجوده بالأرض ، ويحاول أن يهرب من جديد في خان أبي ميسور حيث الأنفاس المتصاعدة ، تبعث الخدر في الأجساد فينتهي الإحساس بها ، وحيث ينطلق الخيال من عقاله فينفصل الإنسان عن الوجود .. ولكنه يواجه الحقيقة هنا أيضاً ، فعلى الجدار سيف الجلاد الذي رهنه صاحبه لدى ابي ميسور لقاء جلسة مع الخدر ..

وتنتهي الدورة حين يقف شهريار على القمة ، القمة الباردة ، عاد من رحلاته كلها ، رحلته مع عاطفته التي انتهى منها عند الخيانة ، ورحلته مع الجسد ورغبات الجسد التي انتهى منها عند شهرزاد ، ثم رحلته مع المعرفة التي بدأت باحاديث شهرزاد الف ليلة وليلة ، ثم استمرت في جولته الطويلة في مصر والهند وكل البلاد ، ثم مرت بابي ميسور وخان ابي ميسور وخدر ابي ميسور وانتهت مرة اخرى عند مخدع شهرزاد ، والعبد يخرج من وراء الستار – ويقول له :

« شهريار – اذهب

شهرزاد – الا تقتله وتقتلني ؟

شهريار – كلا

العبد – (يخرج فرحاً بالنجاة)

شهرزاد – شهريار !

شهريار – لم تنظرين الي هكذا ؟.

شهرزاد – انت رجل هالك !

شهريار – اما كنت تعرفين ذلك من قبل .. »

وهنا تنتهي الدورة ، دورة التجربة والمعرفة والحياة ..

« شهرزاد – (كالمخاطبة نفسها) دار وصار الى نهاية دورة .

العبد – (يتحرك فجأة) استطيع أنا ان اعيده اليك .

شهرزاد – خيال : شهريار آخر الذي يعود . يولد غضاً ندياً من جديد .. أما هذا فشعرة بيضاء قد نزعت ..

وتنتهي المأساة هنا ، تنتهي بهذه النهاية التي يرسمها توفيق الحكيم لشهريار ، لقلقه الكبير ، لصراعه المر مع نفسه ، مع عاطفته ورغبته وعقله .. مع القوى الكامنة المركبة فيه ، القوى الانسانية المحدودة التي تربطه بالارض .

لتكن شهرزاد من تكون ، لتكن كما قال جورج ليكونت كاتب مقدمة الطبعة الفرنسية « وماذا يهم اسمها وملامحها ؟ ليكن لها وجه امرأة ، أو وجه الحظ ، أو وجه العلم أو وجه المجد ، فلن تكون شيئاً آخر غير القمة البراقة التي تتجه اليها وتتهالك عليها مطامع الانسان ، والواحة التي تلهب ظمآه دائماً ولا تطفئه أبداً . والموضوع الذي لاظل للرحمة فيه ، حيث يتلاقى امله الرغيب ووهمه المتبدد ، وكلاهما وفي للآخر ذلك الوفاء الفاجع المحزن »

لتكن شهرزاد كما ارادها جورج ليكونت ، لتكن مجرد محور ارتكاز تدور حوله حياة شهريار ، ونقطة البدء التي يبدأ منها ليعود اليها .. ولتكن شهرزاد هي الطبيعة كما يقول توفيق الحكيم.

« شهريار – قناعها منسوج من هذا الصفاء . السماء الصافية . الاعين الصافية الماء الصافي ، الهواء ، الفضاء ، كل ما هو صاف : ما بعد الصفاء ؟ ان الحجب الكثيفة لأشف من الصفاء . لتكن هي القمة ولتكن هي الطبيعة ، ولكنها على أي حال القيد الذي يربط شهريار بالارض ، بالناس ، بالحياة . هي الخيط الذي يشده الى العاطفة والى الحب والى كل معاني الحياة الجميلة . فهي الحب وهي القلب الكبير . هي الخيط الذي يربطه بالرغبة » هي البكر تعرف الرجال كامرأة عاشت ألف عام بين الرجال ، هي الجسد الجميل ، وهي الرباط الذي يصله بالمعرفة ، بالعرفان ، هي السجينة في خدرها طول حياتها تعلم بكل ما في الارض كأنها الأرض » « أهي امرأتك تلك التي تعلم ما في الطبيعة كأنها الطبيعة ؟ »

هي جماع هذا كله : القلب والجسد والعقل ، هي محور الارتكاز في صراع شهريار من أجل التحرر من قيوده ..

وحين يتحرر شهريار من الحب فيهرب الى الهند والى مصر ، وحين يتحرر شهريار من الجسد فينسى الغيرة ويترك العبد حراً بعد ان يلقاه في خدر شهرزاد ، وحين يتحرر شهريار من البحث عن المعرفة اذ يدرك سر الطبيعة « كل ما يكبر ترجعه الى الصغر ، كل غاية تعتبها بداية » .. حينئذ يتحرر شهريار ..

اجل يخرج شهريار من هذا الاسر الكبير ، من هذا السجن الضخم ، سجن الجسد والروح والعقل وعندئذ نقول له شهريار :

« شهرزاد – انت رجل هالك.

شهريار – اما كنت تعرفين ذلك من قبل ؟ .. »

* * *

بهذا تتفتح جوانب المأساة في شهرزاد توفيق الحكيم « الانسان بارادته المطلقة الكاملة وجهاً لوجه امام طبيعته التي تخضعه لغرائز وعواطف وافكار .. وهو يدور ، يدور حول نفسه ، حين يحسب انه تحرر من اسار ، يكتشف انه وقع في اسار جديد ، حين يظن انه حطم قيداً ، يعرف انه وضع نفسه مختاراً في قيد جديد ..

لقد قال جورج ليكونت في مقدمته انها مأساة المعرفة ، مأساة القلق الانساني الناجم عن البحث عن المعرفة .. وقد يكون في هذا تفسير للصراع ، ولكن صراع شهريار مع المعرفة نفسها ، مع حكايات شهرزاد ، مع رحلاته الطويلة ، مع جلسات الخدر ، مع شعوذات الساحر تظل بلا تفسير ، وهي تجد التفسير الكامل اذا دخلت المعرفة ضمن عناصر الصراع .. وتصبح المأساة هنا هي مأساة القلق الانساني مع قواه المحدوده ، مع هذه الحدود التي رسمت له ان ينفعل ويحب او ان يرغب ويريد أو ان يعرف ويدري .. هذه الحدود التي يدور فيها الانسان خالقاً لنفسه اهدافاً تتمشى مع مراحل صراعه ولكنها لا تحقق له ما يريد من حرية .. وهي مأساة الصراع مع الطبيعة ، صراعه هو الذي يتوهمه ويعيش فيه.

« شهرزاد – لا أظن انها تقارعك او تتكلف لك. اما انت الا شعرة في رأس الطبيعة.

شهريار – كنا ابيضت نزعتها .. »

وشهريار في نهاية المأساة قد أبيض وشف ، قد احب ورغب وعرف ثم ابتعد بنفسه عن كل شيء : عن الحب والغريزة وادرك سر الطبيعة :

شهريار – انها تقارعني بسلاح العجز : السجن داخل حلقة تدور »

فحق للطبيعة ان تنزعه وان تنحيه فقد خرج عن سلطانها ، عن قيودها ، عن اسارها.

« شهريار – لا أريد العودة الى الارض

شهرزاد – لقد قلتها يا شهرزاد – لا شيء غير الأرض.

شهريار – (يتحرك) وداعاً اذن يا شهرزاد

ويذهب ... يذهب شيئاً آخر ، شيئاً معلقاً بين السماء والارض .

يذهب وقد سكنت نفسه بلا صراع وبلا أهداف صغيرة ، وبلا تخبط

القلم والبندقية

أخي س .

أكتب إليك الآن ، والساعة تقارب السابعة مساء . وأنا أشعر براحة نفسية ، أود لو أستطيع تثبيتها وتحويلها إلى حالة دائمة .

عدت منذ ساعة تقريباً من ميدان الرماية ، حيث قمنا بآخر أعمال التدريب ، وحيث أظهر أفراد المقاومة الشعبية من المهارة ما ليس غريباً على جيل عربي مناضل ، يريد أن يكون أمتن الأجيال صلة بالأجداد المغاوير ، وهم من أشهر المحاربين في العالم .

ولا أكتمك أنني كنت ، وأنا أحتضن بندقيتي ، وأرسل رصاصاتي إلى قلب الدريئة (١) ، أفكر في شيء آخر ، قد لا يجد غيري صلة بينه وبين البندقية .

كنت أفكر في قلمي ، أفكر في هذه الآلة التي أعبر بها عن فكري ، وبالتالي عن شخصيتي ، عن وجودي .

القلم والبندقية : آلة الفكر ، وآلة الحرب ، آلة البناء ، وآلة الهدم ، آلة الحياة والخلود ، وآلة الموت والفناء . ما هي الصلة بينهما ؟ ما وجه القرابة بين هذه الآلة الكبيرة الخطرة ، وتلك الهنة الصغيرة المبدعة ؟

أنا أكتب ، فأنا مفكر . وأنا مفكر ، فأنا موجود . عمل القلم يؤدي بنا إلى إثبات وجودنا على الطريقة التقليدية المعروفة. فهل نستطيع أن نثبت وجودنا بالبندقية أيضاً ؟ هل يمكننا القول : أنا مسلح فأنا أقاتل ، وأنا أقاتل فأنا موجود ؟ هل في مقدورنا أن نثبت وجودنا بمقدرتنا على إزالة غيرنا من الوجود ؟ هل يكون من أسرار الحياة العميقة ، أسرارها الكبرى ، أن إثباتها في كائن من الكائنات قد يكون بحذفها من الوجود في كائن آخر ؟

ولم لا يكون الأمر كذلك ؟ تفكيرنا ذاته إنما يدل على وجودنا لأننا — بواسطته — نقضي على فكرة العدم ، لأننا نخلق دليلا حياً ، دليلا ناطقاً ، على حقيقتنا المنتصبة في المكان والزمان تتحدى العدم المنهزم ، العدم الصريع .

أنا المؤمن بالقلم والفكر ، وقوة القلم والفكر ، وعظمتهما ومقدرتهما الخارقة ، وقيمتهما الكبرى ، في نطاق المطلق ، لا بالنسبة إلى أي شيء آخر ، لم أجد غضاضة في أن أحمل البندقية وانتظم في الصفوف ، وأتدرب على القتال ، وأعد نفسي للصمود في وجه أي عدو يفكر في اجتياح بلادي والقضاء على قوميتي . ماذا أقول ؟ لم أجد غضاضة ؟.. بل وجدت من باب الشرف والفخر أن أصبح جندياً من جنود المقاومة الشعبية ، وألا أتقيد بشرط السن فأرى أن سن الأربعين التي نص عليها القانون يجب أن ترفع إلى الستين . أنا في الخامسة والأربعين وأشعر بأنني شاب في ربيع العمر . ومتى كان الشباب يقاس بعدد السنين ؟ إنه روح وحيوية ، ومقدرة على النضال وبذل المجهود ، وإتيان أعمال متنوعة لا تصدر عادة الا عن الشباب .

أول وجه من وجود القرابة — اذن — بين القلم والبندقية هو إثبات الوجود ، إثبات الشخصية ، التعبير عن إرادة الحياة ذاتها .

فأنا — كمواطن — أحتل مكاناً في بلادي ، أكون لبنة في بناء قوميتي ، لبنة قادرة على التفكير ، قادرة على المقاومة . تكسب حق وجودها بطريقة ايجابية عندما تنتج فكراً ، أو أدباً ، أو فناً ، أو عملا بانياً ؛ عندما تخترع ، أو تبتكر ، أو تقتبس ، أي عندما تؤدي دورها الخاص بها في دعم هذا البناء وتقويته والزيادة في ارتفاعه ، ومتانته ، وجماله ، وشهرته ،

(١) الدريئة : الاسم المستعمل للهدف عند العسكريين . وهي عند العرب حلقة يتعلم عليها الطعن . وهو استعمال صحيح موفق .

بين قيوده الانسانية التي وضعتها حوله الحياة .. يذهب وكل ما يتركه وراءه هو المرارة .. هو الضيق .. وهو اليأس ..

أكان توفيق الحكيم يريد ان يقول هذا حقاً .. أكان يريد أن يرسم بهذه الخطوط العريضة حيرة هذا الانسان العاجز وتخبطه ويأسه .. اكان يريد ان يقول ان الحب هباء والجسد هباء والمعرفة هباء .. وان الانسان عاجز امام هذه القوى وحسب .. ! لا أظن هذا .. بل أحسب ان توفيقاً أراد ان يرسم ما وراء هذا الصراع ما يبني انتصار الانسان على طبيعته .. فراغ ، قمة زائفة لا تستقر على الارض ولا تصعد الى السماء . وأحسب انه اراد ان يعبر عن حيرتي وحيرتك وقلقي وقلقك وتخبطي وتخبطك نحن ابناء البشر عبيد هذا الجسد بكل مافيه من عواطف ونوازع وقوى . ثم اراد ان يعبر عن هذا الزوال الذي يلقي على صراعنا المعنى الوحيد .. العجز .. عبث ان نتخلى عن طبيعتنا ، عن تركيبنا ، عن معنى وجودنا .. عبث لا شيء وراءه .

شهرزاد — خيال .. شهريار آخر الذي يعود .. يولد غضاً نديّاً من جديد .. اما هذا فشعرة بيضاء قد نزعت .. »

القاهرة

فاروق خورشيد